عبد الرحمان المجذوب / قراءة جديدة

مصطفى الادريسي

* **لماذا عبد الرحمن المجذوب ؟**

لعل اول سؤال يطرحه المرء على نفسه ما أن يلمح عنوان هذه الدراسة هو : لماذا عبد الرحمان المجذوب بالذات ؟ . ويحتوى هذا السؤال ضمنيا ، على نوع من الاستنكار ، تواجه به عادة أية محاولة تتصدى لدراسة التراث الشعبى المغربى ، بصرف النظر عن منهجها وطريقتها فى التحليل .

هذا الاستنكار يوحد بين مواقف ثلاثة معينة من التراث الشعبى:

أ) — موقف الفئة التى تعتبر المبدع شيئا فوق المجتمع ، فوق الناس ، يدخل ذاته ويقفلها عليه ، فيجد مكامن الابداع ، الالهام ، الوحى.. الخ. بالتالى يصبح الادب ميزة يتميز بها «الانسان المفكر» عن «الانسان اليدوى» (وتنتجها وتتذوقها الارواح الصافية والعقول النيرة ، وتنعدم اية امكانية لدى «العامة» لانتاج أدب ما .

ب) — موقف الفئة التى تعتبر أن للادب الشعبى وجودا لا يمكن تجاهله ، لكن مع قولها بأنه ليس أدبا مبدعا ، وأنه لا يعدو كونه أدبا يتسلى به الانسان ، ويروح به عن نفسه .

ج) — موقف الفئة التى تعتبر التراث الشعبى — بما فيه الادب الشعبى — رجعيا بشكل مطلق ، يستخدم لتكريس الواقع الموجود والدفاع عنه ، وبالتالى فأية عودة اليه كيفما كانت : بحثا أو استهاما ، لا تعنى سوى التكريس والتغميض .

واذا كانت هذه المواقف الثلاثة قد واجهت باحثا مثل الدكتور عباس الجراري اثناء دراسته للقصيدة فى الزجل المغربى (1) ، فانها تواجهنا هنا بشكل أكثر حدة ، وذلك لارتباط «القصيدة الزجلية» بواسطة تركيبها وأدائها المندمج مع اطار موسيقى — بفئات اجتماعية محدودة نوعا ما ، ومرتفعة

الدرجة فى السلم الاجتماعى ، بينما ارتبطت الرباعيات بأوسع وادنى الفئات الاجتماعية ، لقصرها وتركيزها ، وبساطتها ، ولمحاولتها ـ فوق ذلك ـ تقديم « حكمة » للانسان ، تجمع خبرة الاولين ، فتساعده على المضى قدما فى حياته .

ونلاحظ أن الموقفين : الاول والثانى ، لا يعدوان وجهتى نظر قاصرتين ، متخافتين ومتجاوزتين للموضوع ، بينما يبدو الثالث أكثر تماسكا ومنطقية ، الشىء الذى يفسر انتشاره بين اوساط عديدة من المثقفين المغاربة ، حتى المؤمنين منهم بضرورة تغيير المجتمع وحتميته . لكن هذا الموقف لا يبتعد ، فى التحليل الاخير عن قصور الموقفين الاولين وتخلفهما.

فالتراث ـ من جهة ـ ليس رجعيا ولا تبريريا بصورة مطلقة ، التراث سلب وايجاب : اذا كان السلب يساعد على التكريس والتغميض والارجاع الى الخلف ، فان الايجاب فيه يقوم بدور النقيض تماما : بالمواجهة والفضح ، بوضع الاسس والدفع الى أمام .

واهمية دراسته ـ من جهة اخرى ـ تأتى ، ونحن نسعى فى سبيل المستقبل المشرق ، لان لا مستقبل بدون فهم لماض ـ فهم فى الحاضر ـ بدون تنقيته ، والارتكاز على الموجب فيه . و «اذا كان الحاضر يمثل فترة الادراك الحسى السابقة لفترة الوعى ، فاننا لا نستطيع تصوره الا اذا دخل وعينا ، ولا يدخله الا اذا دخلته اشياء ملموسة ، اى اذا أصبح ماضيا»(2) ، هذا الارتباط الوثيق بين الماضى والحاضر والمستقبل ينفى «العدمية» بشكل حازم ، ويطرح ـ لاجل التقدم ـ ضرورة المنهج العلمى فى البحث والتحليل ، من أجل فهم عامى موضوعى (غير طوباوى ولا ذاتى) لهذا التراث .

على هذا، فالقيام بدراسة حول عبد الرحمان المجذوب ، لن يكون شيئا متخلفا ولا عديم الجدوى ، فهو الزجال الشعبى المغربى القديم الاول، ولا زالت رباعياته ـ السالبة غالبا ـ تمارس تأثيرا كبيرا على أوسع فئات الشعب المغربى، مما يعنى أن دراسة نتاجه ، حتى وان كان سالبا ، ستكشف لنا عن الظروف المحددة التى انتجته ، وبالتالى تفسر لنا أساليب استمراره فى ممارسة تأثيره حتى هذا الوقت . وكما يعنى مواجهة كتب «الادب الرسمى» التى تتحدث عن ادنى الشعراء والادباء والفقهاء والبلغاء.. الخ. ذو ى اللغة العربية الفصحى ، وتتجاهل تماما وجود شىء اسمه «أدب شعبى» (3).

غير انه ليس لهذه الدراسة القصيرة والمتواضعة أن تدعى احاطتها بكل شىء عن المجذوب ، فهى فقط تطرح جملة تساؤلات بصدده ، يمكن تناولها من عدة زوايا أخرى ، غير زاوية الدراسة الادبية ، وبصدد الادب الشعبى المغربى ككل ، والمنهج الاسلم لتحليله وتقصيه .

*** تساؤل منهجـــي :**

فى البدء ، نجد أمامنا حقيقة مؤكدة ، وهى أن رباعيات المجذوب ليست كلها لـــه ، بل هـ ـــ وفى جزء مهم منها ـــ من انتاج افراد مجهولـــين ، أو جماعات مجهولة من الشعب المغربى . (4) *

هذه الحقيقة تطرح امامنا مسألة منهجية بالدرجة الاولى ، وهى :

ـــ هـــل ندرس الرباعيات على أنها للمجذوب وحـــده ، بالتالى على انها نتائج لظروف اجتماعية محددة زمانا ومكانا ؟ لم ندرسها على أنها ابداع جماعى شعبـــى مغربـــى ـــ وحتـــى عربى كما سنـــرى فيما بعد ـــ فلا يمكن ربطها ، بالتالى ، بزمان ومكان محـــددين ؟

والواقـــع أن التعارض البادى بين شقى هذه المسألة ، يمكن تجاوزه بواسطة المنهج نفسه فباعتبارنا أن اى ابداع ما هـــو الا نتاج لظـــروف اجتمعايـــة معينة، تتحدد لنا نقطـــة زمانيـــة نستطيـــع ان ننطلق منها. ولايصبح المجذوب مهما فى حد ذاته، كشخص، بل كمعبر، كناطق رسمى باسم جماعة من الناس عاشت فىظروف اجتماعية محددة، ويصبح حتـــى التعبير الجماعى، محددا بنفس الظروف، وهكذا يزول التعـــــارض .

انطلاقا من هذا، لنحدد اذن الاطار الزمانى الذى وجد المجذوب فيه نفسه، والظروف الاجتماعية السابقة عليه ، والمعاصرة له، والتى تشكل خير مدخل لفهم الرباعيات ، وفهم سلبيـــة جلها .

*** عبد الرحمان المجذوب (الظروف المهيئة والمحيطة) :**

ولـــد عبد الرحمان المجذوب سنـــة (908/1503) بمدينة طيـــت، قرب ازمور ، وتوفى سنة (976/1569 بمكناس . بـــين التارخـــين : انتقلت عائلتـــه للسكنى بمكناس ، بعد احتلال البرتغاليين لازمور سنة (912/1507) . درس «العلم؟» بفاس . تجول عبر المغرب، الجزائر ، تونس . ذهب الى الحج راجلا . من المحتمل انه زار بلاد الروم أيضا (5).

ما الذى كان يجرى فى المغرب بين السنتين : 1503 ، 1569 ، وبصورة خاصة قبلهمـــا ؟

فى كتابه «تاريخ المغرب » ياقب عبد الله العروى الفترة من القرن الرابع عشر الى القرن السادس عشر بفترة «الانحطاط» : القرنان اللذان يفصلان بين فشل المحاولـــة الامبراطورية التى قام بها ابو عنان ، وبين الهزيمتين المتزامنتين تقريبا لكل من الاسباب فى تونس سنـــة (1574) والبرتغاليين فى القصر (1578) ، «هذان القرنان» يشكلان عهدا مـــن الانحطاط البالغ (6)».

ويقول ابن خلدون فى مقدمته : « واما لهذا العهد ، وهو آخر المائة الثامنة (أواخـــر القرن 14) فقد انقلبت احـــوال المغـــرب الـــذى نحـــن شاهدوه وتبدلت بالجملة ، واعتاض من اجيال البربر اهله على القدم بمن

طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كثروهم وغلبوهم ، وانتزعوا منهم عامة الاوطان ، وشاركوهم فيما بقى من البلدان بملكتهم وبأسهم ، هذا الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا فى منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذى تحيف الامم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها ، وجاء للدول على حين هرمهاوبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وقل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت الى التلاشى والاضمحلال احوالها ، وانتقض عمران الارض بانتقاض البشر فخربت الامصار والمصانع ، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأنى بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه (...) واذا تبدلت الاحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسر ه وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث (7) . ودون مناقشة نظرية ابن خلدون فى (العمران البشرى) فان المهم لدينا هو تصويره للاضطراب الذى ابتدأ مع عصره ، هذا الاضطراب الذى شكل بدوره عاملا هاما فى نشأة نظرية ابن خلدون ، وأحكامه عن هذا العصر . يقول العروى فى مصدره المذكور آنفا : (وهكذا فان حكم ابن خلدون على عصره ، ذلك الحكم المتحرر من الوهم ، يظهر مبررا تماما : دولة تتصدع ، فلاحة تتراجع الى الخلف ، تجار داخلية تتوقف ، الجبل ينطوى على ذاته ، والارض المغربية تبدو وكأنها تهب نفسها بنفسها للغزاة الاقربين والابعدين » (8) . لقد كان الوضع اذن وخلال قرنين كاملين من الزمن ، هكذا وبصورة عامة ولزجة .

وبصور اكثر تحديدا وعلمية ، يمكن القول بأن العصر المذكور كان : «وضع ارتداد عنيف وشامل الى العلاقات الاجتماعية الاقطاعية . بعد أن توطدت قبل ذلك ، حضارة اجتماعية واقتصادية وعلمية حملت فى ثناياها كثيرا من علائم التحول الى مجتمع رأسمالى صناعى» (9). «فمن جهة كان هذا المجتمع قد حقق انجازات ضخمة ضمن اطار الانتاج البضائعى الواسع ، والحركة التجارية الشاملة ، بحيث كان هذا يتجه نحو ايجاد علاقات اجتماعية جديدة ، قائمة على الانتاج الصناعى الرأسمالى ، ومن جهة أخرى كانت عوامل عديدة تسهم بقوة فى تفتيت ذلك الاتجاه ، عوامل داخلية وخارجية صبت فى تيار واحد : التحول نحو الاقطاع المنزلى البدائى » (10).

وهذه العوامل الداخلية والخارجية ، يمكن ايجازها فيما يلى :

1) ــ الهجمات الاسبانية والبرتغالية على المغرب ، واحتلال عدد من الموانىء المغربية : ففى هذه الفترة ، ومع بدايات تكون الرأسمال التجارى فى أوربا ، ــ الفترة التى اصطلح على تسميتها جغرافيا ب «فترة

الاكتشافات الكبرى» ـ بدأت الغارات البرتغالية والاسبانية تشن على المغرب ، تحت شعار : «الحروب الصليبية» ، كمقابل للامتداد التركي في شرق أوربا . (11) . والتي تم خلالها الاستيلاء البرتغاليين على عدد من الموانيء المغربية . اذ «استولوا في سنة ثمان عشرة وثمانمائة (1415) على مدينة سبتة (...) ، ثم في سنة اثنين وستين وثمانمائة (1465) على طنجة ، ثم في حدود سنة ست وسبعين وثمانمائة (1472) ملكوا أصيلا ، وفي هذا التاريخ نفسه أو قبله بيسير استولوا على مدينة أنفا (الدار البيضاء) وبعض سواحل السوس ، ثم في حدود سنة سبع وتسعمائة (1502)نزلوا بأرض الجديدة فيما بين أزمور وطيت (....) ثم في عشر وتسعمائة (1505) استولوا على مدينة العرائش ، ثم بعد ذلك بيسير في حدود العشر والتسعمائة (...) ملكوا حصن اغادير (.. الخ) « وبالجملة ، فلم يبق من ثغور المغرب الاقصى بيد المسلمين الا القليل» (12) :

2) ـ الصراع على السلطة بين الدول التي كانت تتقاسم حكم شمال افريقيا (المرينيين والزيانيين مثلا) ، ودخل المغرب نفسه (الصراع بين الوطاسيين والسعديين مثلا الذي عاصره المجذوب) .

3) ـ احتكار تجارة البحر الابيض من طرف الايطاليين والايبيريين بعد القضاء على سيطرة المسلمين عليها ، ثم تحويل اتجاه الطريق التجاري الذي كان يربط تمبوكتو بسجلماسة فأوربا ، من طرف الهلاليين ، نحو موانيء الاطلس ونحو الشرق ، عند جنوب المغرب (13) .

4) التهديد العثماني من الشرق : والذي يبتدىء بعد (492) ، «فحين طرد المغاربة عام 1492 من اسبانيا ، أرسل فرديناند حملة ضد مدينة الجزائر ، وبعدما استولى على وهران وبجاية والجزائر ، هدد باخضاع الدولة باسرها . عندئذ استنجد سليم العتمي أمير مليانا، وهو سهل خصب في جوار الجزائر ، بالاتراك بعد ما تبين له عجزه عن مقاومة الغاصب القوي ، فأرسل القرصان الشهير عروج بارباوسة لنجدته . ووصل بارباروسه الى البلاد عام 1516 ، وكان أول عمل قام به هو الاستيلاء عليها باغتيال سليم» (14). فمنذ ذلك الحين بدأت محاولات متعددة لضم المغرب الى الامبراطورية العثمانية ، ساهمت في ضغضغة الوضع داخل البلاد .

5) ـ نزوح اللاجئين العرب الى المغرب بعد طردهم من اسبانيا . هؤلاء اللاجئين «الذين سيتوزعون على مختلف المدن المغربية ، وسوف لن يجدوا في هذه الدول وهي في قمة تفسخها ، اطارا ملائما لاستقبالهم، وقادرا على استغلال كفاءاتهم المتعددة ، لذلك نجدهم يطورون صناعة هامشية ، وغير مراقبة من طرف السلطات المركزية » (15).

وبالاضافة الى الاهمية السوسيولوجية التى تكتنف هـذا اللقاء القسرى بين نجد جانبا آخر ذا وجه اقتصادى ، « فبفضل رؤوس أموالهم ، ثقافتهم ، نمطين متباينين من الحياة الاجتماعية ، ومن حيث درجة التقدم الحضارى، معارفهم ، سوف يقومون بمنافسة عنيفة للتجار والصناع المحليين » (16).

6) ـ أمام كل هذا بدأت الزوايا الدينية فى التكاثر والتقوى وفى نشر نفوذها المتزايد بين الناس ، كبديل لانعدام سلطة مركزية قوية بالدرجة الاولى ، الشىء الذى مكن هذه الزوايا من الوقوف كقوى «سياسية» داخل البلاد ، لها وزنها حتى هى ، والشىء الذى جعل البلاد فى حالة تشتت مروع ، بعد وحدتها وتماسكها القديمين .

لقد كانت هذه العوامل اذن ، جزئيات أو مظاهر من وضع «الارتداد العنيف والشامل الى العلاقات الاجتماعية الاقطاعية» ذاك ، الذى وجد المجذوب فيه نفسه .

والسؤال الان هو : كيف انعكس هذا الوضع على رباعيات المجذوب ؟ وكيف كانت « حكمه » خاضعة بطريقة او بأخرى ، للعصر الذى وجد المجذوب فيه نفسه ؟

وللاجابة على هذا السؤال، لابد لنا من الاحاطة بموقف المجذوب من الحياة ، وعلى الاخص مواقفه من الدولة والمجتمع والمرأة ، ثم من الذات .

1) الموقف من الدولة :

من الثابت تاريخيا ، ولظروف ملموسة وواضحة ، ان المجذوب كان مع دولة الوطاسيين ضد اى غزو خارجى (ولو من طرف السعديين).

يتجلى الموقف من هؤلاء الاخيرين فى عدد من رباعياته ، ويتجلى بشكل خاص فى اعتناقه وتدريسه للقادرية (ايديولوجية الوطاسيين) المناهضة للشاذلية (ايديولوجية السعديين) آنذاك ـ ان صح التعبير.

يقول مثلا فى احدى رباعياته :

عيط يا العياط وعيط فى واد خالى
اذا ضاق بيك الحال عيط على الشيخ الجيلالى

وخارج ميدان الشاذلية والقادرية هذا ، نلمس الموقف فى عدد من رباعياته ، ولكن هذا الموقف غير ثابت عبر كل الرباعيات ، مما يجعلنا نفترض انها كتبت فى مدد مختلفة ، قبل تحرك السعديين نحو الوطاسيين، وخلال هذا التحرك ، ثم بعد الاستيلاء على دولة الوطاسيين .

خلال تحرك السعديين نحو الدولة الوطاسية ، واستيلائهم على سهول دكالة ، الزراعية الخصبة ، نجد ـ بلا شك ـ هذه الرباعية ، القلقة والمتخوفة :

دكالة نوادر كبيرة ما يدريوها مداوى

خـوفـى عليـك يـادكالـة مـــن حكومـة الـــدرارى

ثم مع صمودهم نحو فاس ، العاصمة ، واستيلائهم على عـدد من المدن التى يمرون بها ، يختفـى القلق والتخوف ، وتبدو لهجة المجذوب مهمومة وداعية الى الالتجاء الى فاس ، الملجا الامين :

مـراكـش مبـدا الـهـم سـلا والرباط هما فراشـو
مكناس يـجـرى بالـدم فـاس يامـن بغى معاشـو

ولعل تغير الموقف هذا يمكن تفسيره بأن المجذوب كان يتوقع انتصار «فـاس» . لكن مع التطورات اللاحقة ، مع استمرار القتال ، ورجحان الكفة نحو دولة « مراكش » ، يلين ويبدو اقرب الى التوفيق والمصالحـة وتحكيم العقل والدعوة الى الوحـدة الوطنية فى مواجهة الاعداء الخارجيين (أتراكا واسبانا وبرتغاليين) :

عـوت يـانيـب سايـس وجـاوبو يـا ذيـب وارمـا
اشريف يجرى على الشريف حتى يجى اللى يحسن لهم بلاما

لكن مع القضاء على الدولة الوطاسيـة ، واستيلاء السعديين على فاس ، وأعمال العنف التى دخلوا فيها لامالة الوضع كلية لصالحـهم ، يصبح المجذوب متالما وساخطا ، دون تعبير مباشر ، دون تسمية الاشياء بمسمياتها لكـن بوضـوح :

راح ذاك الزمـان ونـاسـو وجـا ذ الـزمـان بفـاسـو
وكـل مـن يتكلـم بالحـق كسـروا لـو راسـو

هؤلاء الناس الذين يتحدث عنهم مرة أخرى قائلا بأنهم لا يستحقون الحكم ولكنهم ــ فى اطار انقلاب الموازين هذا ــ وجدوا انفسهم علـى سدته ، وانهم أصبحوا من علامات عصره الفائر :

تكلـع الـرى لسهل الـرى وتعطـى للمصـادفـة
الحمير بـدات تتبـورد والخيـل بـات واقفـه

ثـم :

تخلطـات ولا بفـات تصفى ولعـب خزها فوق مـاهـا
ريـاس على غـير مـرتبـه همـا سبـاب خـلاهـا

وفى نقطة «الموقف من الدولة» هذه ، نجد حقيقة تاريخية جد مهمة، اكتسبت فى تالى الايام طابعا مطلقا ، وساعدت على تجزئة البلاد وتفتيتها، وهى : الموقف العنصرى للمجذوب من الزنـوج والبربـر .

ان هذا الموقف ليس عنصريا كما يبدو لاول وهلة ، ولكنه مـرتبط بواقع اجتماعى وسياسى محدد ، هو ارتباط حركة السعديين بالزنـوج والبربر الذين شكلوا اساسها وقلبها ، فكان هجوم السعديين يبدو ــ من خلال اديولوجية الوطاسيين السائدة ــ وكأنه هجوم للمتوحشين الزنـوج والبربر على المتحضرين : العرب « المسلمين ! » ، بالاضافة الى عوامل

هذا العامل الجوهرى «مثلا سيادة العبودية فى المجتمع» . يقول المجذوب مثـــلا :

فى جبـــل بـــارد بـــارد	زادو الثلـــج بـــــرودة
ما كانت البة فى الشلـح	نكـون حتى ف القـرودة

ثـم الرباعيـــة التالية التى توضح بجلاء الموقف السياسى الكامن خلـف الموقف العنصـــرى :

العبيـــــد عـــرق زرزور	والجنـــاح هـــذا لـهـذا
مازال يجيهم شريف غـــدور	ويمسـهم بـــلا شهـــاده

وقد انتبه سيل ميلى الى هذه الحقيقة فاشار قائلا : «هذه النبرات القاسية ضد الزنوج ، يجب الا تجعلنا ننسى «الشطرين» الاوليـن مـن الرباعية التالية التى يبدو لنا فيها بوضوح انه (المجذوب) ضد الزنوج لانهم غزوا بلده وليس عن موقف عنصرى» (17).

العـبـد الا كـان مـذوب	مـا تعيبـــه كحـــولـة
والحـر الا كـان مجعـوب	مـا يسـوى نـص هونـه

ونتيجة لاستيلاء السعديين على السلطة تماما، يحاول طمأنه نفسه، وطمأنة الاخرين ، مفلسفا الصراع حول السلطة والحكم بطريقته الخاصة:

الدنيـــا متلـــهـــا دلاعـــه	بتحرب مـع جميـع الـدلاع
مادا لحقـوها من طماعـــة	ورمـــتهم ى بـير ما تو قاع

وهى من جهة اخـرى ، ليست غير سبب من اسباب النكد والهم :

الدنيـا مسـهـــا دراعـــة	مـا يلبسـهـا غير اللى يشطح
يلبسها ويدوح بهـا ســاعة	ويبكد عليها بعـد ما يمـرح

2) ــ الموقـف مـن المجتمـع :

مجتمع المجـذوب ــ كما سبق ــ كان متجزئا ، مفتتا وفائرا ، كان متأزما . ومن الظواهر الاجتماعية التى تبرز على سطح مجتمع فى حالـة تأزم ، ظاهرة تأخذ المقام الاول وهى ظاهـرة التخـوف من الاخريـن ، والتقوقع حول الذات تشدانا للسلامة . فتنعدم كل الروابط البشريـة، من الوطنيـة الى العائلية، ولا يبقى هناك سوى الفرد ، الفرد وحده ، كقيمة خالدة ومطلقـة .

هكـذا نجـد المجذوب يقـول :

قالـوا الـنـار فى دوارك	قلـت نـمانـع نـاســى
قـالـوا النـار نـاسـك	قلـت نمـانـع راســى

هذا التسلسل من : الدوار ــ الاهل ــ الذات ، لا يعنى غير الذات فى النهاية ، كقيمة واحـدة موجـودة ، واذا كانت هناك امكانية لانقـاذ غير «الراس» فهى لصالح الروابط الدموية أولا وأخيرا .

وفى نفس الاطار، اطار الذات كملجأ وحيد تصبح «صحة الانسان»

وحدها الضامنة لبقائه حيا ، لكونها تبعده عن الاعتماد على أى فرد آخر :

صحتـــى يـــا صحـتـى ... صحـتـــى يـا مـالـــى
اذا مشـــات لـــى صحتـى ... آتش مـــن حبيـب بقـى لى

واذا كان هناك احد يمكن الاعتماد عليه ، والارتباط به ، فليس غير اللـــه :

ما يبكـــى ليك غير شفـرك ... ومـــا يحك ليك غـــير ظفرك
عنـــد اللـــه مكتـــوب رزقـــك ... ونصيبك كل يـــوم يصيبـــك

وكنتيجة حتمية لهذا الوضع ، وضع «الانسان الذئب لاخيه الانسان» يبدو الصمت مرادفا للانعزال ، وكاحتياط ، لاجل السلامة : ليكن الوضع كيفما كان ، وليكن رايك فيه كما تشاء ــ والذى لن يكون مع على كـل حال ــ ، لكن الواجب هو الصمت : الصمت لاجل السلامة :

مهبـــول من يحـــرث الفـــول ... ف شـــط مالـــح يلوحـــو
مهبـــــول من ياخـــذ الفول ... ف صـــاحـــب عوض روحـــو

حتى الصديـــق الاقرب ، يجب الا يعلم بشىء ، وذلك لانه فى هـــذا الوقت ، حتى الصداقة اصبحت « بابا يدخل منه الريح » :

صحبـــة اليـــوم على الفضـــا ... والقـــلال فيـــهـــا دامـــــو
مـــثل الزائـــــر واذا بطـــا ... الشديـــد يوفـــى عـــامـــو

الصمت اذن هو المخرج ، وما يأتى الكلام بغير «البلا» ، وابن الحمامة لو لم ينطلق لما عرف الثعبان مكانه فقصده وابتلعه :

الصـــــمـــت حكـمـــة ... ومنـــو تتفـرق الحكايـــم
لـــو مـــا نطق ولـــد الحميمة ... ما يجيـــه ولـــد الحنش هايم

ولا يتعلق الامر بداخل الانسان فقط ، بل حتى بما يمكن أن يشاهده فى / أو يعرفه عن العالـــم الخارجى ، الانكار والصمت :

الصمت الـــذهـــب المسجـــر ... والكـــلام يفســـد المسالـــة
اذا شفتـــى لا تخـــبـــر ... واذا سالـــوك قـــــل لا لا

وهذه الجملة التى سنتردد فيما بعد : «الانسان ذئب لاخيه الانسان» نجـدها تتكرر باستمرار لـدى المجذوب :

ولـــد بنـــادم لا تربيـــه ... بعـــد مـــا تربيـــه نـــادم
ياسائلنـى علـــى الغـــول ... الغـــول هـــو بنـــادم

و :

ياسائلنـى عـــلـــى بنـــادم ... مـــا خيـــو بطبيعـــة
الفـــم يضحـــك للـــفـــم ... والقلـب فيـــه الخـديعـة

ومن الطبيعـــى فى مجتمع كهذا أن يفقد الانسان قيمته كانســـان ، وتحل محله (المادة) = المال ، وفى رباعيات المجذوب ترد هذه الحقيقة مصحوبة بمرارة واســـى :

المـــال يـــا المـــال ... الـــيـــه البنـــات مالـــو
اللي ما عندوشـــي المـــال ... ما يعمـــل حتى كلبـــي بحالو
ضـــربـــت كفـــي لكـــنـــي ... وخممـــت ف الارض ساعـــه
صـــبت قلـــة النســـي ترنسي ... وتنـــوض مـــن الجماعـــة

ولان هذا كله يصبح ثقيل الوطاة، الانعزال، الصمت، الفرد قيمة اولى المال قيمة مطلقة، ولايستطيع الانسان ان يستمر فيه الى مالانهاية، يلـــوح المجذوب بعد مغاير لهذا اليوم ، يعود فيهم كل شيء الى وضعـــه القديم غدلابد أن ياتي، وحتى نصل اليه، علينا أن نصبر والا الامل، الا نياس :

لا تخمـــــم لا تـــدبـــر ... لا تـــرفـــد الـــهـــم ديـــمة
افلـــك مـــا هـــو مســـمـــر ... ولا الـــدنيـــا مقيـــمـــــة

و :

... ليـــام تمـــــرض وتبـــرى ... والصبـــر هـــــوا دواهـــــا

و :

اللي يستنى خير من اللي يتمنى ... واللي يتمنى خير من قاطع الاياس
اللي في يدك خير من اللي ف جيبك ... واللي ف ايد الناس ما يبنى بث ساس

وربما كان بث الامل بغد افضل، ايجابيا، ولكنه من جهة أعمق، مفرط في السلبية. فهذا الغد سيأتي دون تدخل من الانسان، دون فعاليته ونشاطه : ما عليه الا بالانتظـــار ، حتى تهب الريـــح :

نرقـــد على النســـوك عريـــان ... ونضحك للـــي جفانـــي
بصبـــر لنعـــوس نيـــام ... حتـــى يأتـــي زمـــانـــي

الصبر والانتظار، حتى تهب الريح :

اذا هي دنيتـــك مهمـــومـــة ... وزمانك مـــا هو معاك مليـــح
خلي الدرسه في التبن ملمومـــة ... استنى حتى يهـــب الريـــح

وبالاضافة الى تعبير المجذوب عن هذا الجانب من زمنه ومجتمعه ، نجده يعبر عن حقيقة بالغة الاهمية، تكشف لنا أن مجتمع المجذوب لم يكـــن مميزا بـ / ومتجنسا تحت: الانطواء، الصمت، الانتظار، بل كانت هناك صفة اخرى تميزه، لاشك في انها عمقت من عزلة قطـــاع واســـع من المجتـــمع، وانطوائه، هذه الصفة هي: «التمايز الاجتماعي» :

البسيط مـــا درى بالحافـــي ... والزاهي يضحك على الهموم
اللي راقد على القطيفـــة دافي ... والعريان كيف يجيه النـــوم ؟

هي «اللاتجـــانس» :

قليل المـــال ديمـــا محقـــور ... ف دنيتـــو مـــا يسواشـــي
زهـــو الدنيا لاصحاب المـــال ... اللي يمشيو ويعنقرو النواشي

ويحدد المجذوب موقفه من هذا التمايز، من هذا التنـــاحر الاجتماعـــي، بالتعاطف مع المسحوق فيـــه، واذى كان ـــ كالعادة ابدا ـــ يشكل اغلبـــية

الشعب المغربي :

بكيتني يا المسكين ... وشفيني حالك
الزين ما تاخذو ... والدين ما ينعطى لك

ج) ــ الموقف من المرأة :

والمرأة ، من أية ناحية كانت ، وفكرة استبداد الرجل ــ الناتجة عن ظروف الموقف لا يبتعد ، في التحليل الاخير ،عن تصور الموقفين الاولين وتخلفهما موضوعية معينة ــ بدأت تفقد يوما بعد يوم مبرر وجودها ... الخ

اذا كانت وضعية المرأة في مجتمع ما تحدد ــ كما قال انجلز ــ طبيعته ، فان نظرة الى ما يقوله المجذوب ــ كضمير عصره والعصور التالية ــ عن المرأة ، لتؤكد بجلاء هذه الحقيقة ــ

موقف المجذوب من مسألة المرأة واضح ، وهو يجسد بدقة تامة التناقض الموجود في موقف المجتمع الاقطاعي من هذه المسألة :.

فالمرأة أدنى قيمة من الرجل ، وهي تابع له ، وهي لا ثقة فيها ، ناقصة العقل ... الخ من المفاهيم التي تنهار ما ان يقاربها مشرط البحث العلمي .

يقول المجذوب مثلا :

تحواس البلاد نزاهة ... تعرف شعاب وتجوز
حبة النسا سلفة ... محبة الرجال كنوز

و :

لاف الجبل واد معلوم ... ولاف الشتا ليل دافي
لاف العدو قلب مرحوم ... ولاف النسا عهد وافي

و : بت

سوق النسا سوق مطيار ... يا الداخلو رد بالك
يوريو لك من الربح قنطار ... يالداخلو رد بالك

ولان المرأة عار فيجب تزويجها قبل البلوغ حفظا «الماء الوجه» :

بكر لحاجتك تقضيها ... رصنت ما يقول الفال
بذاك قبل البلوغ عطيها ... لا تظل في قيل وقال

هذا من جهة : المرأة ــ التابع ، المرأة ــ العار ، أما من جهة المرأة ــ الجسد ، المرة ــ المحبوبة ، فالامر يقفز مباشرة الى النقيض: هي حياة الرجل ، وسر وجوده ، وبوجودها وحده يستطيع مواجهة الحياة:

حب النسا مسك تفاح ... مشموم بين الطواقي
من حبوه يموت مرتاح ... ومن كرهوه يموت شقي

و :

يا البنات يالجائزات ... بالله ثقلو رجليكم
اذا كنتو البحور ... انا بابور ليكم
ياصاحبي صيح ونصيح ... ونعمرو برج خالي

عندى كلام الرجال ريح فى ريح وغـزالى هو راس مـالى

ومن الملاحظ أن رباعيات هذا الشق الثانى ، تكاد ترد مباشرة على رباعيات الشق الاول : «مثلا : محبة النسا سلفة = محبة النسا مسك تفاح » . وان المرء ليستغرب من ان هذا الفهم لوضعية المراة رغم تناقضه الواضح مع بعضه ، يتمتع باتساق داخلى شديد مع نفسه .

د) ــ الموقـف مـن الـذات :

يكاد موقف المجذوب من ذاته ، يكثف لنا كل عصره ، باضطرابه وتخلخلـه وعـدم استقراره .

اذ ها هو ذا من جهة يتحسر على زمن مضى ، كان فيه عزيزا ،ويتالم مـن فاتـه فى زمـن المعـاش :

واذا اعتبرنا بأن ما تقوله هذه الرباعيـة يعبر عن واقع المجذوب نفسه حقـا ، كان عاليا وسقط فان التبرير موجود فى عصره نفسـه : بالاضافة الى الاضطراب العام ، نجد موقف المجذوب من الصراع بـين الوطاسيين والسعديين ، والذى كان الى جانب الاولين ــ كمـا سبـق ذكره ــ ، والذى اكسبه موقعا اجتماعيا ممتازا فى عهدهم ، من دون شك فقده عند استيلاء الاخيرين على الحكـم :

بمرارة هذا الفقدان وهذا السقـوط ، يقول المجذوب :

يا محنتـى عـدت خمـاس والتبـن عمـى عيـونـى
خمسـت عـلـى عـرة الناس وقـت الماكلة يحـوزونـى

ويقـول ثانيـة :

بـلـغ السـلام لـثونـة قولليها رانىخماس وشابعبرد ليالى
ربـعـة لمـول الجوجـة والخـامـس عـاد ديالـى

وربما كان هذا التعبير عن «السقوط» ، يتعدى ذات المجذوب ، الى دولة الوطاسيين ، التى كانت عالية يوما ما ، ثم هوت :

يـا ذ الزمـان يـا الغـدار يا كاسرنـى مـن ذراعـى
طيـحت مـن كـان سلطان وركبـت مـن كـان راعـى

وهاهو ذا من جهة اخرى ــ يحس بتفرد من نوع خاص ، أن صح التعبير ، تفرد من ثقلت عليه وطاة الوضع فى البلاد، تفرد من يفكر ويدرك ويعرف كل ما سياتى ، أمام جهل ولا مبالاة كل الاخرين :

تسـعـة وتسعـيـن دوار فـ راسـى مقيمـة
السارح مـا يظلـم السارح ولا تعطـش ليـهم بهيمـة

ويعبر هذا الاحساس بالتفرد مرة أخرى عن نفسه فى صرخة الـم وحزن تصعد من أعماق الذات :

يا ويـح مـن طاح ف بيـر وصعـب عـنـو طلـوعـو
تـرفـر مـا صـاب جنحين يبكـى وينشفـو دمـوعـو

الوضع ذاك ، اذن ، بئر ، والمجذوب «يفرفر» ، لا يجد «جنحين»، فيبكى : لقد قدر عليه أن يكون هنا ، لا فى مكان آخر ، لا شىء بيده .

لكن مقابل هذا التعاطف الوجدانى مع الساقط فى البئر ، نجد سخطا عارما ، وثورة رفض لكل هذا العالم ، رفضا لا يغير ، ولكنه ينسحب من فوق الخشبة ، ويترك كل شىء على حاله (هل نتذكر هنا مثل النعامة)؟:

بلاد ارى و ارى ... والحفا والحفا
سلف هذا المجذوب ... فيها لازاد خلفه

لكنه لا يغادرها ، ويبقى ، واقفا أمام الناس ، كما يعرفونه ابدا ، لكن محطما تماما من الداخل :

يا حمام يعطيك ريبه ... ياللى مبنى على مهد نارك
من برا ما بان دخان ... وف الداخل انحرقو حجارك

الحسرة ، اذن ، على الزمن الذى مضى ، والاحساس بالتفرد ، التألم ، الرفض ، ثم الانهيار الداخلى . هذه هى السمات البارزة لموقف المجذوب من ذاته . والتى ان كانت تقترب بنا من عصره فهى تقترب بنا أيضا من المجذوب ، وتساعدنا على فهم مكونات ابداعه ، وعلى ادراك سر المرارة ذاك الذى نلمسه فى جل رباعياته .

(عبد الرحمان المجذوب = احمد بن عروس) ؟

حسب الروايه المصرية فان ابن عروس «ولد فى قرية صغيرة بأقصى مديرية قنا فى سنة 1780 ، حين كانت مصر فى أواخر حكم المماليك (الذى كان كله قسوة وغلظة وظلما) ، وكانت الفوضا والفساد يعمان (الذى كان كله قسوة وغلظة وظلما) ، وكانت الفوضى والفساد يعمان البلاد ، فلم يكد ابن عروس يشب عملاقا مفتول الساعد حتى طغى وتكبر واصبح مجرما مرهوبا ولصا خطيرا ترأس عصابة من أخطر اللصوص (...) فلم يكن ابن عروس يخشى حكومة ذات بأس ، بل كان الامر على العكس، فان حكومة المماليك الضعيفة عندما ترامت اليها انباؤه ، هلعت من خشيته، فزادت شوكته قوة ، وزاد سطوة وجبروتا .. فلم يكن منه الا أن ألف جيشا كبيرا من أعوانه ، واقام لنفسه دولة مستقلة دستورها الجريمة ، وقانونها الارهاب » **(18)**.

وحسب الروايه المصرية أيضا ، فان ابن عروس « ظل على هذه الحال حتى أشرف على سن الستين ، فأدركته فجأة نفحة من الهداية والتعقل ، وبدأ يندم على ما ارتكب من جرائم وآثام .. وأخذ قلبه يتفطر من خشية لقاء الله على هذه الحال من الاجرام والفجور .. وصح ندمه وتوبته ، فاعتزل الناس الى خلوة نائية ، عكف فيها على صلاته ودموعه يسأل الله ان يقبل توبته ويغفر له» الى أن «خرج من الخلوة «مجذوبا» (!) يلبس ثوبا من الخيش .. وراح يضرب فى أرض الله منتجعا

من بلد الى باد ، داعيا الى طريـــق الهدى والرشاد .. منشدا دعوته فى [illegible] تطرب لها نفوس الناس (....) وظل هكذا حتى توفى عن [illegible]

[illegible] هذا يبدو ان الحكاية عاديـــة جدا ، ولا وجه للغرابة فيها والحقيقة ان الغرابة ليست فى الحكايـــة ، بل فى «منظومات» ابن عروس نفسها ، عند ما يقول مثلا :

كيد النسا يشبه الكسى ... من مكرهم عدت هارب
يتحزموا بالحنش حى ... ويتعصبوا بالعقارب

كما أن ننتهى من قراءة هذه «المنظومة» ، حتى نمتلىء دهشة واستغرابا فهذه المنظومة ـــ الرباعية ـــ ، أقرب ما تكون الى اللهجة الدارجة المغربية عنها الى اللهجة الدارجة المصرية ، وهذا واضح من كلماتها ومن تركيبهـــا .

وهـــى ـــ وهذا الاهـــم ـــ ليست لابن عروس بل لعبـــد الرحـــمان المجذوب ـــ مع بعض التعديـــل ـــ ، يقـــول المجذوب :

بهت النسا بهتين ... من بهتهم جيت هارب
يتحزموا بالحنش حى ... ويتخللوا بالعقارب

وكلما تقدمنا فى قراءة رباعيات ابن عروس ، كلـــما زادت دهشتنـــا واستغرابنا أكثر فاكـــثر .

يقـــول ابـــن عـــروس :

يا قلب لا كويك بالنار ... وان كنت عاشق لا زيدك
يا قلب حملتنى العار ... فى حب من لا يريدك

ويقـــول المجـــذوب :

يا قلب نكويك بالنار ... واذا بريت نزيدك
يا قلب خلفت لى العار ... وتريد من لا يريدك

يقـــول ابـــن عـــروس :

اللى على الخير هنيه ... وبشره بالغنيمة
واللى على الشر عزيه ... حياته ديما اليمة

ويقـــول عبد الرحمان المجـــذوب :

فاعل الخير هنيه ... بالفرح والشكر ديمة
وفاعل الشر خليه ... فلعلو يرجع لو غريمه

ويـــلاحـــظ ان رباعيـــات ابن عروس ليست هى فقط رباعيـــات المجذوب ، بل تتعداها لتشمل رباعيات زجال مغربى قديـــم آخر ـــ تنسب أزجاله عادة الى المجذوب ـــ ، هـــو الشيخ محمد الشرقـــى (+ 1602/1010) (19) . فيقول ابن عروس :

لابد من يوم معلوم ... ترتد فيه المظالم

ابيض على كل مظلوم اسود على كل ظالم

ويقول الشيخ محمد الشرقي :

لا بد من يوم مسوم ترتد فيه المظالم
اشرف من دن مصوم اويل من خان طالم

انه عالم غريب بالفعل هذا الذى يتفتح امام اعيننا ، ويبدأ التساؤلات ضرورة الصدى لهذا السلب ، واعادة احيائه ولو بالبحث او المعاقبة ! المتعددة تطرح نفسها عليه بكل قوة وإلحاح .

• هل عبد الرحمان المجذوب هو نفسه ابن عروس ؟

• كيف حدث ان الشعب المصرى يتداول رباعيات بالنهجه الدارجه المغربيه ، دون ان يفطن الى مصدرها ، وفوق ذلك ، يعبرها ابداعا لاحد ابطاله ؟

• كيف حدث أن انتقلت هذه الرباعيات الى مصر ؟

واسئلة اخرى متنوعه ومتعددة ، تخرج بنا الاجابه عليها من المجال المحدود لهذا البحث الى مجال اخر اكثر عمقا واتساعا .

وربما كنا نستطيع تلمس بعض جوانب المساله ، اذا تذكرنا من جهه حقيقه ان رباعيات المجذوب ليست كلها له ، وانها فى عدد مهم منها ، ابداع شعبى جماعى ، واذا ما حاولنا ، من جهه اخرى ، عقد مقارنه بسيطه بين الرجلين .

فالمجذوب — بحكمه — كان له موقف معين من الوضع الذى عاصره، وابن عروس — كما يروى الحكايه — كان له موقف معين أيضا من حكم بالتالى الا يمكن القول بان الشعب يخرم من يعتبرهم حكماءه وابطاله بطريقته الخاصه تلك ، فينسب اليهم كل ما يزيدهم جمالا على كمال ؟ سواء اكان هؤلاء الابطال واقعيين ام خياليين .

والحال ان المهم بالنسبه لنا هنا ، هو ظهور الرباعيات ، واستمرار تاثيرها ، وبالنسبه لرباعيات (ابن عروس — المجذوب) ، يمكن القول بان انتشارها فى اوساط الشعب المصرى يكمن سره فى الظروف الاجتماعيه الخاصه التى عرفتها وتعرفها مصر ، كما عرفها ويعرفها المغرب ، وكما عرفها ويعرفها العالم العربى ككل .

*** خلاصات :**

من خلال هذا يتبين أن الرباعيات كانت تعبر عن ظروف معينة ، بالتالى جاء سلب اغلبها وقصوره مرتبطا بمحدودية هذه الظروف نفسها ، يتجلى هذا — مثلا — فى مفاهيم : «الشريف» ، «الشلح والعبد» ، « الانطواء على الذات » ، «الصمت» ، «الصبر» ، «المال قيمة مطلقة» ، «النساء ناقصات العقل» ،... الخ ، هذه المفاهيم التى نعرف اليوم بوضوح مدى رجعيتها وتخلفها : فالناس كلهم سواسية ، لا يتميز بعضهم عن

يحضر بشيء ، وعلى الاخص بالنسب . والانطواء ، العزلة والصمت ، ليست سوى «حلول» فرديه حاطته ، بينما الحل الصحيح هو الحل الجماعى ، المنطلق ، الواعى والمسؤول ، والذى يعمل على هدى قوانين المجتمع الموضوعية والانسان ليس سيمة مطلقه ، بل الانسان ، ولا فرق بين الرجل وبنايه ناحيه كانت ، ومكره استبداد الرجل — الناجه عن ظروف موضوعيه وزمنيه معينه تفقد يوم بعد يوم مبرر وجودها ... الخ .

ثم يستطرد اكثر تركيزا : لقد كانت مواقف جل الرباعيات من المجتمع والطبيعة — بصوره خاصة — مواقف متخلفة ، سالبة ، لم يعد لها مكان في مجتمعنا الحاضر ، لا تساعد الا على الجدب الى الوراء ، بالتالى تطرح المسالة التى ناقشناها بعض الشيء فى البدايه نفسها مره اخرى : ما ضرورة التصدى لهذا السلب ، واعاده المسالة اقشطقه

اولا : ومن الممكن تركيز الاجابة على هذا التساؤل فى النقط الثلاث التالية :

من المعلوم ان الفن — كشكل من اشكال الوعى الاجتماعى — يضم جوانب ثلاثه متمايزة بعضها على بعض :

+ جانب معرفى + جانب ايديولوجى + جانب جمالى .

والرباعيات كشكل فنى لا تخرج عن هذا التحديد .

وعندما نقول بان هذه الرباعيه سالبه ، فنحن نعنى ان جانبيها : المعرفى ، والايديولوجى خاصة متخلفان .

فيما يتعلق بالرباعيات الواردة اعلاه ، لابد من توضيح انها ليست «عينة» لكل رباعيات المجذوب . فهناك من جهة — استنادا الى معيار الجانبين الجانبين المعرفى والايديولوجى — رباعيات موجبة ، وضرورة وجودها — كنقيض للرباعيات السالبة — تفرضها طبيعة المجتمع نفسه ، المضطربة والمتناقضة هناك كمثال ، الرباعية الشهيره ، والتى تكشف لنا الى اى مدى تقدم اسلافنا — على الصعيد الفنى — فى فهمهم للعالم المحيط بهم ، وفى تعبيرهم عنه .

تقول الرباعية :

الخبز يا الخبز والخبز هو الافادة
يو ما كان الخبز ما يكون لا دين ولا عبادة

ومن جهة اخرى ، هنا رباعيات لا يمكن ، اعتمادا على المعيار المذكور ، وصفها بالسلب ، وذلك لضعف الجانب الايديولوجى فيها ضعفا تاما ، بشكل يجعل الجانبين المعرفى والجمالى فيها ، مالكين لحرية التحرك خارج عصرهما ومكانهما ، ويتجلى هذا فى الرباعيات ذات الطابع الوجدانى بصورة خاصة .

مثلا :

قلبى جا بين المعلم والزبرة والحداد ما يشفق عليه

يسرف لو اضربه على الضربة واذا برد يزيد النار عليه

و :

المحبة بنت الرضى اللى حبها ملكاتو
ما خطات حتى واحد وكل واحد كيف جاتو

بنت

و :

نوصيكم يا بنات لا تاخذو البحرى
يرمى انقلوع ف البحر ويخلى الدموع تجرى

2 — من الملاحظ أن رباعيات المجذوب ،ذات التأثير السلبى المذكور لازالت تمارس تأثيرا حادا على مجتمعنا الحالى ، مما يجعلل دراستها، حتى وان كانت سالبة، والكشف عن الاسباب التى انتجتها تشكل مدخلا ضروريا لفهم عوامل استمرارها ، والعمل من ثم ، على تغيير وخلق جديدين نوعيا، ومرتكزين على أسس ثابتة .

ورغم أن هذه النقطة تثير سؤال استغراب فى البداية : هل عصرنا هذا يشبه عصر المجذوب ، حتى تستمر رباعياته (القاصرة معرفيا والمختلفة اديولوجيا) فى ممارسة تأثيرها ؟ فان الاجابة واضحة وضوح الشمس .

فبصرف النظر عن الاختلافات الظاهرة بين المجتمع هذا والمجتمع ذاك ، لازال الجوهر هو هو ، لم يتبدل ولم يتغير ، لازال هناك تمايز اجتماعى ، ولازال هناك تناحر اجتماعى ، والفئات الاجتماعية التى كان بمستطاعها فى أوائل هذا القرن — أن تخلق تغييرا اجتماعيا يساعد على « اقبار » المفاهيم والهياكل المتخلفة لم تنم بشكل طبيعى ، بل بشكل قسرى، بمساعدة الاستعمار ، مما جعلها — عوض ان تثور على الماضى — تدمجه فى بنيتها ، وتتحالف مع ممثليه : الفئات الاجتماعية المتخلفة السابقة عليها ، وكان النتاج الطبيعى لهذا التحالف على الصعيد الفكرى، استمرار نمط التفكير القديم ، المتخلف — لا معرفيا ولا ايديولوجيا — .

ثالثا — من الملاحظ أن الرباعيات ، وكما ورد فى البداية أيضا، شكل متداول بين أوسع الفئات الشعبية ، وأدناها فى السلم الاجتماعى ، بالتالى ، وبالاضافة الى ما سبق ، ترد أهمية دراستها كشكل ، للاستفادة منه ، وتطويره ، وعلى الاخص فى وضعية بلادنا التى لم تعرف قط زجالا حديثا أو معاصرا فى مستوى بيرم التونسى أو أحمد نجم ، زجالا استطاعت أزجاله أن تنزل الى ادنى فئات الشعب، حاملة اليها فكرا جديدا ، ودافعة اياها الى التحرك بدل الخنوع والانطواء على الذات .

وبعد ، هذه محاولة جد متواضعة فى الطريق الطويل جدا ، طريق البحث فى الادب الشعبى المغربى والتراث الشعبى المغربى .

واذا كانت لم تحط بالموضوع احاطة تامة وشاملة ، فربما شفعت

لها الاسئلة التى طرحتها حول المجذوب ، وحول جانب من الادب الشعبى المغربى، والتى لا زالت بحاجة الى بحث ونقاش ، واعادة بحث وتعميق نقـــاش .

مصطفى الادريـــسى
الدار البيضاء ، يوليوز 1974

---

* هـــــوامـــــش :

(1) د . عباس الجرارى، **الزجل فى المغرب** : القصيدة . مكتبة الطالب الرباط ، مارس 1970 (ص : 3)

(2) د. ع. الجرارى ، **الثقافة فى معركة التغيير** . دار النشر المغربية، البيضاء ، غشت 1972 (ص : 544) .

(3) (بدون ابتعاد والتزاما بالمغـــرب ، وبمبحث المجذوب ، نذكر كمثال كتاب : « **النبوغ المغربى فى الادب العربى** » ، الذى يتحدث فيه عبد الله كنون عن : اليسيئنى ، الفقيه المتكلم النظار ، والهبطى ، العالم الناصح المخلص ، وعبدالعزيز الفشتالى ، الوزير صاحب القلم الاعلى ، والنابغة الهوازلى . شاعر الدولة الرسمى (!!) . الخ .. ويتجـــاهل تماما وجـــود شخص اسمه : عبد الرحمان المجذوب ، ـــ نفس المصدر ، الجزء الاول، (ص ص : 246 ـــ 266).

(4) سيل ميلى وبخارى خليفـــة ، **رباعيـــات المجذوب الساخـــر.** ميزوناف ولاروز باريس ، 1966 (ص 12) . (تجدر الاشارة الى أنه قد اعتمدنا على هذا المرجع بشكل خاص فيما يتعلق بالنصوص وبالمعلومات التاريخية . ورغم اهمية هذا الكتاب فانه يسقط فى عدد مـــن الاخطـــاء ، الناتجة عن المنهج المتبع فيه « مثلا : اعتبار الرباعيـــات راسما لحيـــاة المجذوب ، منذ ولادته حتى موته » ، أو الناتجة عن اللهجـــة الدارجـــة المغربية « مثلا : جوجة و (المحراث) يترجمهـــا بزوجـــة Epouse ومن حكمة للمجذوب عن حارث الدوم ، يستنتج أن المجذوب كان يشتغل بفتل الدوم ، ويقيم عليها تحليلاته التالية) :

(5) ج. سيل ميلى ، المصدر المذكور ، الفصل الثانى (ص : 449 وما بعدها) .

(6) عبد الله العروى . **تاريخ المغـــرب** . ماسبيرو ، باريس 1970 (ص : 211) .

(7) الشيخ ابو العباس الناصـــرى ، **كتاب الاستقصا لاخبار المغرب الاقصى** ، دار الكتاب ، البيضاء ، 1955 ، الجزء الرابـــع ، (ص : 85).

(8) عبد الله العروى ، المصدر المذكور ، (ص : 392).

(9) د. طيب تيزينـــى ، **مشروع رؤية جديدة للفكر العربى فى العصر**

الوسيط ، دار دمشق ، دمشق ، 1971 ، (ص : 392) .
(10) د. تيزينـــى ، المصدر المذكور ، (ص : 392).
(11) العروى ، المصدر المذكور ، (ص : 216).
(12) الناصرى ، المصدر السابـــق ، (ص : 110).
(13) العروى المصدر المذكور ، (ص : 216 و 221) .
(14) ك. ماركس - ف. انجلز ، **فى الاستعمار** ، (مقتطفات) ، ترجمة: د. فؤاد أيوب دار دمشق ، دمشق (وبدون تاريخ) ، (ص : 181) .
(15) العروى م. س. (ص : 223).
(16) العروى م. س. (ص : 224)
(17) سيل ميلى ، م. س. ، (ص : 56).
(18) تم الاعتماد فى كل المعلومات الواردة حول ابن عروس علـــى الكتابين :
ـ حيـــرم الغمراوى ، أدب الشعب ، سلسلة كتب الجميع ، جريـــــدة المصرى ، القاهرة ، 1951 (ص : 71 ـ 78) .
ـ أبـــو بثينـــة ، الزجل العـــربـــى ، كتاب الهـــلال ، عدد: 270 ، دار الهلال ، القاهرة ، 1973 (ص 49 ـ 56) .
(19) د. عباس الجرارى ، الزجل .... ، (ص : 82)